

## من آيات الله

### في السموات والأرض

قال تعالى في سورة الجاثية: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية: ٣-٤].

في هذه الآيات البينات يشير القرآن الكريم إلى آيات الله المبثوثة في السموات والأرض، وهذه الآيات لا تقتصر على شئ دون شئ، ولا حال دون حال، فحيثما مد الإنسان بصره، وجد آيات الله تطالعه في هذا الكون العجيب.

وأى شئ ليس أية، ففي كل نظرة ينظر بها المؤمن في هذا الوجود يرى آيات دالة على قدرة الله، وعلمه وحكمته. فالكون كله في نظر المؤمن بالله هو كتاب الله المفتوح يقرأ في صفحاته آيات تتحدث عن جلال الله، وعظمته، وكماله.

هذه السموات بأجرامها الضخمة، وأفلاكها الهائلة، وهي على ضخامتها مبعثرة كالنثار الصغير في الفضاء، الفضاء الهائل الرهيب الجميل.

ودورة هذه الأجرام في أفلاكها، في دقة، واطراد، وتناسق جميل لا تشبع العين من النظر إليه، ولا يشبع القلب من تمليه.

وهذه الأرض الواسعة العريضة بالقياس إلى البشر وهي ذرة أو هباءة بالقياس إلى النجوم الكبيرة، ثم بالقياس إلى هذا الفضاء الذي تتوه فيه، تتوه لولا القدرة التي تمسك بها، وتتنظمها في العقد الكوني الذي لا يتوه شئ فيه.

وما أودعه الله طبيعة هذه الأرض في موقعها الكوني الخاص، من صلاحية لنشوء الحياة فوقها، ومن خصائص دقيقة مقصودة متراكبة متجمعة متناسقة، لو اختلت خصيصة واحدة منها أو تخلفت، ما أمكن أن تقوم فيها الحياة أو تدوم.

وكل شئ في هذه الأرض، وكل حى آية، وكل جزء من كل شئ، ومن كل حى فى هذه الأرض آية . . . والصغير الدقيق كالضخم الكبير آية . . . هذه الورقة الصغيرة فى هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة آية، آية فى شكلها وحجمها، آية فى لونها وملمسها، آية فى وظيفتها وتركيبها، وهذه الشعرة فى جسم الحيوان أو الإنسان آية، آية فى خصائصها ولونها وحجمها. وهذه الريشة فى جناح الطائر آية، آية فى مادتها وتنسيقها ووظيفتها. وحيث مد الإنسان ببصره فى الأرض أو فى السماء تراحمت الآيات وتراكبت، وأعلنت عن نفسها لقلبه، وسمعته، وبصره .

ولكن من الذى يرى هذه الآيات ويشعرها؟ لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها؟ لمن؟ للمؤمنين . . . لأن غير المؤمن لا يرى فيما يرى من هذا الوجود إلا أشباحاً تتحرك، وكائنات تظهر وتختفى، وقد ينبهر بما يرى ويفتن بما يملأ عينيه من جمال، ولكنه يظل حيث هو فى تعامله مع كائنات الوجود وعوالمه، دون أن يصله شئ من هذا الكون ومبدعه .

إذن الآيات للمؤمنين . فالإيمان هو الذى يفتح القلوب لتلقى الأصداء، والأضواء، والأنداء، والإحساس بما فيها من آيات الله الماثورة فى الأرض والسماء .

والإيمان هو الذى تخالط القلوب بشاشته، فتحيا وترق وتلطف، وتلتقط ما يزرخ به الكون من إحياءات خفية، وظاهرة، تشير كلها إلى اليد الصانعة، وطابعها المميز فى كل ما تصوغه وتبدعه من أشياء ومن أحياء . وكل ما خرج من هذه اليد فهو خارق معجز، لا يقدر على إبداعه أحد من خلق الله .

وإذا كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ عرض عام للوجود كله فى السموات والأرض، فإن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ . نظرة فى أفق محدود من آفاق الوجود. إنها نظرة ينظر بها الإنسان إلى نفسه . وكيف خلق؟ ومن أين جاء؟ ثم نظرة أخرى

يتجاوز بها حدود نفسه إلى عوالم الأحياء التي تدب على الأرض وتعيش فيها، فهي عوالم كثيرة مختلفة الأشكال والصور، بعضها يعيش على اليابسة وبعضها يعيش في الماء، وبعضها يسبح في الجو، وفي كل عالم منها أجناس كثيرة لاتكاد تقع تحت حصر. وأصغرها كأكبرها في خلق الله، معجز في تصريفه، معجز في تناسب حيواته على هذه الأرض بحيث لايزيد جنس عن حدود معينة، تحفظ وجوده وامتداده، وتمنع طغيانه على الأجناس الأخرى طغيان إبادة وإفناء.

واليد الممسكة بزمام الأنواع والأجناس تزيد فيها وتنقص بحكمة وتقدير، وتركب في كل منها من الخصائص والقوى والوظائف، ما يحفظ التوازن بينها جميعاً.

النسور جارحة ضارية وعمرها مديد، ولكنها في مقابل هذه نزرة قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرراير ولنا أن نتصور كيف كان الأمريكيون لو كان للنسور نسل عصافير؟ وكيف كانت تقضى على جميع الطيور.

والأسود كذلك في عالم الحيوان كاسرة ضارية، فكيف لو كانت تنسل كالظباء والشاء؟ إنها ما كانت تبقى على لحم في الغابة ولا غذاء ولكن اليد التي تمسك بالزمام تجعل نسلها محدوداً بالقدر المطلوب، وتكثر من ذوات اللحوم من الظباء والشاء، وما إليها لسبب معلوم.

وهكذا وهكذا في الخلق ذاته، وفي خصائصه، وفي تدبيره وتقديره في عالم الناس، وعالم الدواب، في هذا كله آيات، آيات ناطقة ولكن لمن؟ من الذي يراها ويتدبرها ويدركها؟ ﴿لقوم يوقنون﴾.

واليقين هو الحالة المهيئة للقلوب كي تحس، وكي تتأثر، وكي تتيب، اليقين الذي يدع القلوب تفر، وتثبت، وتطمئن، وتتلقى حقائق الكون في هدوء، ويسر، وثقة، وفي راحة من القلق، والحيرة، والزعزعة فتصوغ من أقل ما تحصل أكبر النتائج وأعظم الآثار في هذا الوجود.

وقد أشارت الآيات إلى معان من الحكمة يستدل بها ذو العقل على الله وأسمائه وصفاته ووجوده، والآية الأولى ذكرت أن الإيمان للمؤمنين والآية الثانية ذكرت أن الآيات للموقنين. ونأخذ من ذلك أن هناك آيات في الكون لا بد لإحساس القلب فيها من إيمان، وآيات لا بد لإحساس القلب فيها من يقين.

وفي هذه النظرة القائمة على حدود الإنسان وما يحيط به من كائنات حية يرى المؤمن ما يملأ قلبه بما لله سبحانه وتعالى من حكمة، وعلم، وقدرة. حيث تصنع القدرة الإلهية من تراب هذه الأرض تلك الكائنات المنتشرة في كل أفق من آفاقها، والتي تملأ وجه الأرض حياة، وحركة، وجمالاً.

\* \* \*